

من الأمور المدهشة في الحياة الطَّرَفَ والقِصص والحكايا والأمثال الشعبية التي يتناقلها الناس فيما بينهم، ومنذ كنت صغيراً كان لدي سؤال محير، وهو: من يُولف النكات، ومن أين تبدأ القِصص؟ وكنت أفكر أحياناً عندما أسمع نكتة ما، أن أسأل راويها ممن سمعها ثم أتابع حتى أصل إلى مصدر النكتة. ولكنني لم أفعل، ربما لقناعتي منذ ذلك الحين بأني لن أصل إلى شيء. وكما تعلمون فإنه من العبث محاولة معرفة أين بدأت نكتة معينة أو قصة طريفة أو حتى إشاعة ما، وحين أردت أن أكتب مقدمة هذا الكتاب فإني شعرت بالشعور نفسه وتذكرت سؤال المحير ذاته: من يُولف النكات، ومن أين تبدأ القِصص؟

للوهلة الأولى قد يبدو أنني أنا شخصياً مؤلف هذا الكتاب، وأن قصة كتابته تبدأ يوم أمسكت بالقلم وبدأت أسطر بعض الفِكر، ولكن بعد النظرة العميقة خطر في بالي أن القصة بدأت يوم رزقت بطفلي الأول، وبنظرة أعمق وجدت أن القصة ربما بدأت حين تزوجت، وبالتدقيق أكثر وجدت أن الأولى أن تكون بداية القصة حين كنت طفلاً صغيراً، وكان والدي -رحمه الله- ووالدي -حفظها الله- يتعاونان في تربيته، ثم استرسلت مع طريقتي نفسها في التفكير لأصل إلى جدودي وجداتي ومن ثم إلى مزيد من الأجداد، وكم كانت دهشتي

شديدة عندما اكتشفت أن قصة كتابي ترجع إلى مئات من السنين التي تراكمت في أثنائها طرق ومهارات تربوية مختلفة متباينة ومتناقضة بعضها مفيد وغالبها لا يسمن ولا يغني من جوع.

تذكرت والدي -رحمه الله- وتذكرت معه عصا الخيزران التي كانت ترقد بسلام فوق خزانته إلى أن أرتكب مخالفة يراها والدي شديدة فكان يتصل بي ويطلب مني أن أجهز الخيزرانة ريثما يأتي، وكانت فترة الانتظار هي الأشد رعباً وكثيراً ما تدخلت جهود دبلوماسية حثيثة من جدتي -رحمها الله- لمحاولة حل المشكلة بالطرق السلمية، وكانت مساعيها تنجح غالباً، خاصة أنني الطفل المدلل في الأسرة، كيف لا وأنا الصبي الوحيد الذي جاء بعد أربع بنات (جئت على شفحة ولفحة) ولا أدري ما الشفحة ولا اللفحة، وإذا كان أحد القراء لديه عادتي نفسها في تتبع أصل الأمور فلعله يقوم مشكوراً بتقصي أصل الشفحة واللفحة، المهم مع أن الوساطة الدبلوماسية كانت غالباً ما تجدي إلا أنني كطفل صغير -في ذلك الوقت- كنت أتلقى شحنات من الرعب الذي زرع في قلبي تجاه والدي وتجاه الخيزرانة، وتمر الأيام وأجد نفسي أباً لأربعة أبناء، صبيين وبنتين (ياسين - معاذ - زاهرة - فاطمة) والخامس أو الخامسة -لست أدري- قد بدأ مشاكساته وهو ما زال في بطن أمه\*، وكنت قد أقسمت في سري أني لن أعامل أولادي بالطريقة التي عوملت بها، ولكن الإنسان ينسى. وكم كانت صدمتي بالغة يوم وعيت فجأة أن لدي خيزرانة موضوعة في مكانها المحدد في منزلي، وأن أبنائي (الصبيان المساكين) قد تجرعوا من مرارتي ومرارتها ما كان كافياً ليحوّل حياتنا إلى جحيم، لقد كانت صدمتي بالغة لأسباب عدة:

(\* عند مراجعة الكتاب كان خالد (الخامس) قد انضم للمجموعة.

- ١ . لأنني اكتشفت أن التاريخ يعيد نفسه .
  - ٢ . لأنني اكتشفت أنني حثت بقسمي .
  - ٣ . لأنني اكتشفت كم كان والدي - رحمه الله - يحبني ، وأن الطريقة التي كان يستخدمها ما هي إلا وسيلة خاطئة للتعبير عن حبه ورغبته في إيصالني إلى أفضل ما يمكن .
  - ٤ . لأنني اكتشفت أنني تحولت إلى (بعبع) في نظر أولادي وأنهم ينتظرون بفارغ الصبر لحظة مغادرتي المنزل ليتنفسوا الصعداء، لقد كانت صدمة لي أن أعني أن ذهابي - وليس قدومي - هو مصدر سعادة أبنائي .
  - ٥ . لأنني اكتشفت أن النتائج التي وصلت أسرتي إليها لم تكن هي التي أريدها، ومع ذلك فقد كنت أنا المسؤول عن تلك النتائج .
  - ٦ . لأنني مع كل ما اكتشفته كنت أقف حائرًا لا أدري ماذا أفعل ومن أين أبدأ؟! .
  - ٧ . لأنني اكتشفت أن أبنائي جواهر، ولكنني كنت حدادًا، استخدمت معهم مطرقة الحداد وعضلات الحداد ونار الحداد .
- في ذلك اليوم قررت قراراً مصيرياً يصلح أن يكون بداية لا بأس بها لمضمون هذا الكتاب، لقد كان القرار هو أنني سأعزل الحدادة، وأبدأ بتعلم مهنة الصائغ، وأدوات الصياغة، وحساسية الصائغ ورقته .
- ولكن هل كان الأمر سهلاً؟ اللهم لا وألف لا .
- هل أتقنت هذه المهنة الراقية؟ اللهم لا وألف لا .

هل كان هناك عوائق؟ بالطبع وكان أكبر عائق هو إتقاني لمهنة الحدادة التي ورثتها عن آبائي وأجدادي كابرأ عن كابر. وكأني حين قررت التخلي عن هذه المهنة، لم ترض هي أن تتخلي عني، وبقيت مهاراتي القديمة تتدخل في تعلمي لمهنة الصياغة وما زالت إلى يومي هذا، ولو شئتم لأخبركم بما فعلته من يومين أو ثلاثة.... ولكن

لقد ظهر الفرق، وكان فرقاً جوهرياً، فقد كنت أمارس مهارات الحدادة تحت عنوان: واجبي التربوي، أما الآن فقد صرت أمارسها تحت عنوان: أخطائي التربوية.

وقد احتاج مني هذا التفريق إلى قدر غير قليل من الشجاعة والصدق مع النفس، كما احتاج إلى مقدار كبير من التواضع، والأصعب من ذلك كله هو فترة التخلص من الإرساءات القديمة وإعادة برمجة نفسي من جديد، ولكم أن تتخيلوا صعوبة تحول الجزائر "أبو كاسم" إلى الدكتور "أبو كاسم" الاخصائي في الجراحة التنظيرية للعين. أعتقد أن أحداً لن يسلم عينيه لأبي كاسم، ولكن فرصة كاسم في إتقان المهارات الجديدة ستكون أكبر بكثير.

المهم أني بدأت تلك الرحلة، واستغرقت مني حتى الآن حوالي أربع سنوات مع كثير من الصراع في داخلي وأنا أمزق قناعاتي البالية ومهاراتي الرّاضية، وكثير من الصراع الخارجي مع من حولي ممن ما زال متمسكاً بإرثه، وما زال يلقي باللائمة على هذا الجيل وعلى المدارس الفاسدة ورفاق السوء وعلى التلفاز وشبكة الاتصالات (الأنترنت) وعلى زوجته التي لم تعرف كيف تربي الأبناء، وعلى حظه التعيس، ووربما على المؤامرات الخارجية التي تحاك لإفساد أبنائه، ولم يدر المسكين أن المشكلة في قناعاته، وفي أدواته ومهاراته.

## ما الذي ساعدني خلال هذه الفترة؟

أمور ستة كان لها الفضل بعد توفيق الله عز وجل:

١. قراءة مجموعة من الكتب الحديثة في مجال التربية وعلى رأسها كتاب (العادات السبع للأسر الأكثر فعالية)، ومع أن الكتاب قد لا يعده البعض كتاباً في التربية لأنه لا يذكر لك مهارات تربوية تفصيلية إلا أنه عندي يعد من أهم كتب التربية لأنه ينسجم مع فهمي الجديد الذي طرحته مرة في إحدى المحاضرات حين قلت للحضور:

إن مصطلح تربية الأبناء مصطلح مضلل؛ لأنه يوحي بأنك ستمسك بأدوات معينة وتتجه بها إلى أبنائك لتربيتهم، لتؤدبهم، لتصلحهم. وما صرت أفهمه عن التربية أنها تربية لذواتنا وتوجيه الأدوات التربوية لإصلاح أنفسنا وجعلها قدوة صالحة يتعلم منها الأبناء بلسان الحال وليس بلسان المقال.

٢. حضور مجموعة من الدورات التدريبية التي زودتني بمجموعة من المهارات الفعالة جداً، لأنها كانت مهارات تعمل نحو الداخل، فككتني وركبتني من جديد، وعلى رأسها دورات البرمجة اللغوية العصبية ودورة العادات السبع للناس الأكثر فعالية والتي كانت تركز دائماً على أن التغيير يبدأ من الداخل: من القناعات، من الأفكار، من القيم، من المهارات.

٣. زوجتي العظيمة التي أشهد أنها كانت خيراً مني في امتلاك تلك المهارات الجديدة مع أنني كنت أنا مدرّبها، ولا عجب فكم من تلميذ فاق أستاذه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ولعل من الأسباب أن زوجتي كانت أقرب إلى أن تكون (كاسم) من أن تكون (أبو كاسم)، لذلك كنت أعلمها

المهارة فتطبقها مباشرة فأتعلم من تطبيقها ما لم أكن أفهمه عملياً.

٤. احتكاكي بمرتب فاضل كان قد سبقني بسنوات وخرج من صندوق إرثه، وحقق على أرض الواقع نتائج تربوية مذهلة، كانت أصدق شاهد على مصداقية الطرق التي يستخدمها، وأكبر دليل على ضعف وتلهل الطرق الموروثة السائدة رغم شعبيتها وانتشارها وتغلغلها في ثقافتنا وفي عقولنا وأعصابنا. وكان شعاره في التربية: أعط أبناءك المزيد من الحرية، أطلق طاقاتهم وسع خياراتهم.

٥. الاستشارات التربوية التي كنت أقدمها كانت تريني أسراً تابعوا في الطريق القديمة التي كنت أسلكها وتوغلوا فيها إلى أن وصلوا إلى طرق مسدودة، وانتهى بهم السعي إلى أمراض نفسية وعقد اجتماعية عندهم أو عند أبنائهم أو عند الطرفين معاً وهو الأغلب.

لقد كنت أرى أين كان يمكن أن أصل لولا لطف الله، ومن خلال مساعدة تلك الأسر كنت أزداد قناعة وتمكناً من المهارات الجديدة.

٦. بعض المقالات التربوية التي بدأت أكتبها في مجلة تواصل، والتي ساعدتني على أن أبلور خبراتي الجديدة وأصوغها كتابياً، وكان لهذه المقالات صدى طيب عزز لدي المضي قدماً، ثم قرأت مرة خلاصة عن كتاب لطيف لكين بلانشارد عنوانه (Whale Done) يتحدث عن تدريب الحيتان وكيف يمكن تطبيق هذه الاستراتيجية المميزة على تدريب الموظفين فاستعرتها ووظفتها في مجال التربية فكانت نواة الكتاب، ونواة الدورة التدريبية التي أقدمها بعنوان: التربية الفعالة. والاسراتيجية ذات الثلاث خطوات هي:

- بناء الثقة.
- اصطیاد الإیجابیات.
- إعادة توجيه السلبيات.

وبعد أن كتبت الكتاب، أضفت إليه ما وجدته مناسباً من مقالاتي التي كنت قد نشرتها في مجلة تواصل، ثم طبعت بعض النسخ المبدئية ووزعتها على من أثق بخبراتهم التربوية ليزودوني بنصائحهم، وقد أثلج صدري إعجابهم بمضمون الكتاب وطريقته كما استفدت من ملاحظاتهم ونصائحهم وقمت ببعض التعديلات، وتوسعت في شرح بعض الفقرات، أو ذكرت رأيهم بجانب رأيي وتركت للقارئ الحق في أن يختار ما يعتقد أنه الأفضل.

وبعد... فهل هذا الكتاب منهج متكامل في التربية؟ بالطبع لا، وإنما هو مجموعة إضاءات مهمة وجدتها مفيدة حين طبقت عملياً، كما أنه تركيز على تبني منظومة من المفاهيم التربوية القائمة على التربية بالحب والثقة والقدوة والتعاطف وعدم الإكراه بدلاً من المنظومة التقليدية المنتشرة في بيوتنا ومدارسنا، والقائمة على العنف واللوم والعقاب والشدّة والقسوة والإكراه.

وكان من جملة الملاحظات التي جاءتني أن هذا الكتاب هو مجموعة مثاليات لطيفة حاملة غير قابلة للتطبيق العملي، إلا أنه مفيد في تعديل الكفة قليلاً نحو التوازن التربوي المطلوب، وأنه صفة لأولئك الذين سدرُوا في طرقهم الشديدة، ومع عدم موافقتي على أن الكتاب مجرد مثاليات غير قابلة للتطبيق لأنني أنا شخصياً استطعت أن أطبق الكثير مما فيه ولمست نتائج هذا

التطبيق كما أنني رأيت من استطاع أن يطبق ما جاء في الكتاب بل وأكثر منه، إلا أنني أقبل أن يكون الكتاب تعديلاً للكفة نحو التوازن، وأنصح من أراد أن يستفيد من هذا الكتاب أن يناقشه مع من يثق بخبرتهم وأن يحولوه إلى ورشة عمل، وأن يجهزوا أنفسهم لدفع الثمن، ثمن التغيير\*، لأنه كثيراً ما مررت في أثناء رحلتي بمواقف كان أسهل شيء علي أن أرتد على عقبي وأن أصرخ بأعلى صوتي:

”بلا تربية حديثة بلا بطيخ“

كانت هذه مقدمة للكتاب حاولت خلالها أن أقص عليكم قصته من بدايتها فإن استطعتم أن تحددوا ما هي البداية فليتكم تجربونني لأنني ما زلت في سؤال المحير:

من ساهم بتأليف هذا الكتاب وأين تبدأ قصته؟!

(\*) جاء في أحد الآباء بعد حضوره للدورة ومحاولته مصادقة ابنته واللعب معها وفي وجهه مجموعة من الخدوش التي سببتها له ابنته دون قصد، وهما يتصارعان، وأخبرني أنه بقي ثلاثة أيام غاضباً منها. (هذا بعض الثمن).

في لقاء حي و مباشر نظمته إحدى الفضائيات العالمية، استضيف ذلك المربي الحكيم المتخصص في خفايا النفس البشرية و خباياها، الذي نجح في تنشئة جيل متوازن سليم فعال، بدءاً بأولاده و مروراً بطلابه و تلامذته، و انتهاءً بكل من تأثر بأفكاره و كتبه و مقالاته. و كان السؤال الأول:

- من أين اكتسبت كل هذه المعارف و الخبرات التربوية العملية الفعالة؟

- الحقيقة أن الأمر بدأ منذ نحو عشرين سنة، حين كنت أعاني من صعوبات جمة في تربية أولادي و خاصة المراهقين منهم، شأن شأن كثير من الآباء و الأمهات الذين اعتادوا أن يستخدموا الوسائل التربوية نفسها التي استخدمها معهم أهلهم من قبل، كنت أفعل الشيء نفسه الذي اعتدت أن أفعله، فأحصل على النتيجة نفسها التي طالما حصلت عليها، ثم بدأ التغيير الجذري في ذلك اليوم الذي دعاني فيه صديق لي لزيارة عرض لمدربي الدلافين. جلست يومها مثل أي متفرج عادي أشاهد ذلك العرض المثير، و انبهرت بالقفزات الرائعة و الاستعراضات المنظمة التي أدتها تلك الحيوانات الضخمة بمجرد أن يشير المدرب بيديه، و عندما انتهى العرض، ضج المكان بالتصفيق الحاد و تعالت صيحات التقدير من الجمهور،

ولكنني بقيت في مكاني مذهولاً تماماً، فقد استحوذ على تفكيري سؤال:

• كيف تمكن هذا المدرب من إقناع هذه الدلافين بأداء تلك الحركات المنظمة و تحقيق هذه النتائج المذهلة؟ .

حيرني السؤال، فلم ألحظ الجمهور وهو يغادر المكان، وبقيت وحيداً أرقب المدرب وهو يكافئ دلافينه على أدائها المتميز.

اقتربت من المدرب وعرفته بنفسي، ثم فاجأته بطلب غريب:

- أريد منك بعضاً من الدروس الخصوصية !

ظن أني أمزح ولكن حين لمس إصراري وجديتي تغيرت لكنته وسألني:

• بالله عليك، قل لي: ماذا تريد مني بالتحديد؟ .

- قلت له: أريد أن أعرف السر !

- أي سر؟

- السر في أن هذه الدلافين تفعل كل ما تأمرها به، كيف استطعت أن تروض هذه الحيوانات الضخمة وتجعلها طوع بنانك؟ هل تسيطر عليها بشحنات كهربائية أو أنك تتركها تجوع حتى تنفذ ما تأمرها به؟ أو لعلك تستخدم السوط أو...

قاطعني المدرب وقد بدا الاستياء على وجهه:

- ياللعار، أنا أربأ بنفسي أن أستخدم هذه الأساليب الوحشية في تدريب دلافيني العزيزة .

شعرت أني أخطأت فحاولت الإصلاح قائلاً:

لا تسئ فهمي فأنا أعاني ما أعانيه في تربية أولادي  
وترويضهم وتعديل سلوكهم، وخطر في بالي أنه يمكن أن  
يكون هناك أمور كثيرة أتعلمها منك، ولعل هناك تشابهاً بين  
الأولاد وهذه الدلافين الرائعة، فهل يمكن أن تساعدني؟

انفرت أساريه وابتسم قائلاً:

- هذا حسن، ولكن في البداية عليك أن تعرف أن التدريب  
بالإكراه والعنف لا يؤتي ثماره، فهذه الحيوانات تستطيع  
أن تفرس مدربها في لحظة واحدة، والعنف لا يؤدي إلا إلى  
الخوف، والخوف يشل الحركة، لذلك أول خطوة في التدريب  
الحقيقي هي إزالة الخوف من العلاقة بينك وبين المتدرب سواء  
كان حوتاً أم بشراً.

- ولكن ماذا لو أخطأ المتدرب ولم يتعلم الدرس، أو لم يؤد  
المطلوب! منه؟ ألا تعاقبه؟

أنا لا أنظر إلى المسألة من هذه الزاوية، وأستغرب منكم أيها  
المربون فأنتم مهمومون فقط بالتعامل مع الذين لا يستجيبون،  
يبدو أنكم يا مدربي البشر تعملون في الاتجاه الخاطئ، فأنتم  
تهدرون طاقاتكم وأوقاتكم في التعامل مع الذين لا يستجيبون،  
إنكم في الحقيقة تحاولون أن تداروا فشلكم بمعاقبة الذين لا  
يستجيبون، إنكم تحاولون تغطية قلة مهارتكم ونقص خبرتكم  
بادعاء أنكم لم تفشلوا في التربية، ولكن الأبناء هم الذين فشلوا،  
ثم تتفننون بعد ذلك في إيجاد الأدلة الزائفة على هذا الادعاء  
الخاطئ، وتركزون على وسائل معاقبة المقصرين.

خذ أقرأ هذا المقال بعنوان: (الآباء يأكلون الحصرم والأبناء  
يضرسون) ثم دعنا نتابع حديثنا.



أول خطوة في التربية والتعليم  
إزالة الخوف



## الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون :

حين يضرس الأبناء، أي: تظهر منهم بعض السلوكيات الخاطئة أو الانفعالية يغفل الآباء والأمهات عن دورهم الأساسي في خلق المشكلة، فالأبناء مرآة صافية تعكس بدقة نوعية الممارسات التربوية التي يتلقونها في البيت أو المدرسة، فحين يمنح المربون إلى التسلط، ويحاولون زيادة السيطرة على الابن، ويتدخلون في كل كبيرة و صغيرة من شؤونه، ينشأ ضعيف الشخصية و مؤهبا لمشاكل نفسية لا حصر لها .

و حين يفرطون في محاولة الحماية و يخافون على الابن من نسمة الهواء، و يخافون عليه من أي شيء، ينشأ الابن ضعيف الثقة بنفسه و مؤهبا لرهابات اجتماعية كثيرة .

و حين يهمل الطفل و يترك دون مكافآت أو تشجيع أو كلمات رضا و استحسان و قبول فإنه يفقد الحافز والدافع للعمل و الدراسة و يصبح كسولا خاملا .

و حين يتراخى المربون في تربية الطفل، و يبالغون في تدليله و الاستجابة لمطالبه كلها ينشأ الابن غير مكترث و تنمو عنده اللامبالاة و الأنانية .

و حين يستخدم المربون أساليب القسوة و العنف البدني و النفسي ينشأ الطفل خائفاً متردداً و يزرع في قلبه الخوف و الرعب الذي يولد الحقد و الكراهية .

و حين يكترس المربون من محاولة إصلاح الابن عن طريق الإقناع و الحوار المنطقي يمل الابن و تفقد النصائح و المواعظ معناها و يصبح الابن متممراً هازئاً لامبالياً بكل ما يلقي على مسامعه من حكم و مواعظ .

وحين يكون المربون مذبذبين مضطربين يتصرفون بأشكال مختلفة تجاه السلوك الخاطيء نفسه فمرة يكافئون و مرة يعاقبون و مرة يصرخون و مرة يتوعدون و يهددون ، فينشأ الطفل شديد التناقض دائم القلق لا يستطيع تمييز الخطأ من الصواب .

وحين يفاضل الأهل بين الأولاد و يقارنون و يفضلون أحدهم على إخوته تنشأ الغيرة و الكراهية و حب الانتقام .

تذكر دائماً :

حين يضرس الأبناء فهذا يعني أن الأهل قد أفرطوا في أكل الحصرم

### وما أولادنا إلا مرآة لنا

في أحد الأيام كان هناك متسلقان يصعدان طريقاً جبلياً، وفجأة وجدا نفسيهما وجهاً لوجه أمام دب ضخم، جلس أحدهما فوراً على الأرض وسحب زوجاً من أحذية الركض من حقيبته الموضوعه على ظهره وبدأ ينتعلهما بسرعة بعد خلع حذاء التسلق الضخم، فحدق المتسلق الآخر فيه مندهشاً وسأله : ماذا تفعل ؟ هل تظن أنك تستطيع أن تسبق الدب؟

أجاب المتسلق الأول : ليس المهم أن أسبق الدب، المهم أن أسبقك أنت !

لا مانع في أن نفكر كما فكر المتسلق الأول في بعض السياقات، ولكن هذا النمط من التفكير غير مقبول وغير عملي عندما نكون في إطار الأسرة، كان الحل لدى المتسلق الأول هو الهرب ومحاولة إبعاد نفسه عن الموقف الصعب، وربط نجاته بقدرته على التفوق في المناورة وهزيمة الآخر الذي يصبح ضحية لذلك الموقف الخطير، ولكن عندما يكون هذا الآخر

جزءاً أمني وأنا جزء منه، فلا معنى لنجاتي من دون نجاة الآخر إلا إذا قبلت بالقول الشائع: نجحت العملية ولكن المريض مات.

كثير من الآباء والأمهات يهربون من المواقف الصعبة، يهربون من تحمل المسؤولية ويحاولون إلقاءها على شخص آخر، لذلك يتركون كثيراً من واجباتهم التي لن يستطيع غيرهم القيام بها، يتركونها للروضة أو للمدرسة أو لمقدمي الرعاية أو لأي شخص أو جهة يرسلون الأطفال إليها.

كثير من الآباء والأمهات يأتون إلي في استشارة تربوية وهم يريدون منذ البداية أن يأتوا بابنهم المشاكس أو ابنتهم المراهقة لأصلحها لهم، ولكنني أصر على أن أقابل الأهل أولاً، وفي أكثر الأحيان لا أقابل إلا الأهل، لأن الإصلاح والحل يبدأ من الأهل وليس من الأبناء.

لا تتبنّ طريقة "المقاوم العام"

في القيام بواجبك التربوي

باستعمال أو استئجار "مقاولين فرعيين"

للقيام بالعمل الفعلي المتمثل

ببناء أبنائك أو تدرّيبهم وتعليمهم وتربيتهم

أحياناً أشرح واجب الآباء والأمهات في حمل المسؤولية  
بمثال بسيط:

هل حدث معك أنك اكتشفت - بعد انتهائك من ارتداء القميص - أنك قد أخطأت في تزرير الأزرار بحيث بقي زر في الأعلى ليس له عروة أو بقيت عروة ليس لها زر؟ بالطبع كل منا

مر بهذه التجربة المضحكة وخاصة عندما نكون على عجلة من أمرنا، كيف نكتشف عادة أننا أخطأنا؟!؟

طبعاً عندما ننظر إلى المرأة ونرى قبة مرتفعة وأخرى منخفضة.

ماذا نفعل عادة؟!؟

طبعاً سوف نحمل المسؤولية ونصحح الخطأ.

إلى أين نتوجه بأيدينا عادة عندما نريد إصلاح الخطأ؟!؟

طبعاً باتجاه أنفسنا، وبالرغم من أننا رأينا الخطأ هناك في المرأة إلا أن أي عاقل منا لن يتوجه بيديه نحو المرأة ليصلح الخطأ.

لماذا؟!؟

لأننا إذا توجهنا بأيدينا نحو المرأة فسنكسرها ونجرح أيدينا، وعندئذ لا نرى الخطأ بالرغم من أنه ما زال موجوداً!

أبناؤنا - أيها الإخوة القراء - هم مرآة لنا نرى في تصرفاتهم انعكاساً لتصرفاتنا، نسمع في كلامهم صدى أقوالنا، فإن لم يعجبنا شيء فعلوه أو قالوه فلتتجه إلى أنفسنا ولنصلح منها، الطفل العنيد وراه أم أو أب أعند منه، والابنة التي تخاف وراهها عادة أم تخاف أكثر منها، والابن الانفعالي وراه أسرة رضع منها الانفعال، والأطفال الذين يصرخون وراههم أسرة لم يعود فيها الأبوان نفسيهما ضبط النفس وإدارة الذات وخفض الصوت، والطفل الذي يضرب عندما يتزعج من شيء قد ضرب مراراً من قبل أبويه عندما انزعجوا منه.



مساكين أنتم يا أبناءنا، ما أكثر ما نعاقبكم  
بسبب أخطائنا!

مساكين أنتم يا أبناءنا! ما أكثر ظلمنا لكم  
بسبب تقصيرنا!

مساكين أنتم يا أبناءنا! ما أكثر ما نعاتبكم على  
ما تعلمتموه منا!

مساكين أنتم يا أبناءنا! ما أكثر ما نلومكم على  
أشياء نفعناها نحن أكثر منكم!

مساكين أنتم يا أبناءنا! كم مرة نضغط عليكم  
للقيام بأمور فشلنا نحن في تحقيقها!

مساكين أنتم يا أبناءنا! كم مرة نكسر المرأة  
ونرتاح من رؤية الخطأ المعشش فينا!

مساكين أنتم يا أبناءنا! كم نحملكم أوزارنا!  
ثم إنكم بعد ذلك كله تحبوننا وتصفحون عنا  
وترحموننا!!!



هل تعرفون لماذا تسامحوننا؟

لأن قلبكم الصغير ما زال أبيض لم يتلوث، ولأن الله سبحانه قد حباكم بغلوبولينات مناعية نفسية تقيكم جهلنا وضعف مهارتنا وقلة حيلتنا، وعسى أن ننضح ونتعلم قبل أن ينتهي مفعول هذه الهبة الربانية.

لماذا نفعل ذلك بكم؟

لأننا نحبكم ونريدكم أن تكونوا أفضل منا، ومن الحب ما قتل!

فرق كبير بين أن نحمل المسؤولية، وأن نهرب منها ونلقيناها على أبنائنا.

نهرب من المسؤولية عندما نقول: إن المشكلة هناك عند الأبناء وهم في حاجة إلى إصلاح بعض القطع أو استبدالها.

نحمل المسؤولية عندما نعي أن الحل بأيدينا، وأن الذي يحتاج إلى إصلاح واستبدال هو مهارتنا التربوية وقدرتنا على ضبط أنفسنا.

تكمن المشكلة - كل المشكلة - عندما نعتقد أن المشكلة هناك (عند الأبناء)

بعكس متسلق الجبال الهارب ينبغي لنا - نحن المرين - أن نتحمل المسؤولية الكاملة في تربية أبنائنا، ولئن استعنا ببعض الدعم والمساندة الخارجية فإن هذا لا يلغي دورنا الأساسي ومشاركتنا الفعالة في هذه المهمة الحساسة.

يحاول بعض الناس الهروب حينما يرون الدب على أمل أنه سيأكل شخصاً آخر بدلاً منهم ولكن الدب كالمسؤوليات،

فهي ستمسك بك إذا حاولت الهرب منها، لذلك من الأفضل لك مواجعتها بدلاً من الهرب .

لا تهرب! اثبت وتحمل مسؤولية الأسرة بشكل كامل .  
حول هذه المسؤولية إلى متعة .

وعندما تقوم بواجبك سيتعلم منك أبنائك كيف يتحملون هم المسؤولية .

لا حلول سحرية؛ ولا خيارات سريعة؛ ولا تجدي عادة بعض المسكنات .

الأمر يحتاج إلى الوقت والصبر؛ ولكن في النهاية تصبح المسؤولية مقياساً لحياتنا وسعادة أبنائنا .

\*\*\*

أنهيت المقال وتأثرت به كثيراً فالتفتُ إلى المدرب الذي سألني بابتسامة : هل مازلت مصرّاً على أسلوب العقاب .

- شعرت ببعض الحرج، ولكنني قلت: أعتقد أن التعامل مع المقصرين بالنسبة إلي، هو مسألة بحث عن منبع لتقويم السلوك ليس إلا، والعقاب جزء مهم من التربية .

ولم أسمع منه سوى الصمت، ولم أكن أنا شخصياً مقتنعاً بما قلته للتو، وبعد قليل قال لي المدرب :

- باختصار، تتكون الاستراتيجية المثلى للتربية من ثلاثة محاور:

- ١ . بناء الثقة (Trust)
- ٢ . اصطياذ الايجابيات (+)
- ٣ . إعادة توجيه السلبيات (-)